القصص

دراماتان من اسخيلوس

ليلة فى الفردوس (١)

« وإلى الأبد فى جهنم ! »

آخرة المتضرعات

للأستاذ دريني خشبة

ملخص الدرامة الأولى

كان لأيجبتوس ، أمير مصر السفلى ، خمسون ابناً ، وكان لأخيه دانوس خمسون ابنة ، وكان الزواج من بنات العم فى ذلك الزمن محرما بل كان يعد نوعاً من الزنى ؛ وبالرغم من هذا أراد إيجبتوس أن يزوج أبناءه من بنات أخيه ، وكان هذا الأخ ، دانوس ، قد رأى فى منامه أن أحد أزواج بناته يذبحه ، فلما ذهب إلى الكهنة يستفتيهم فى هذا أكدوا له صحة الرؤيا ، ولذلك رفض تزويج بناته ، وهرب بهن على فلك إلى آرجوس ، وهناك ، فى حرم الآلهة ، لقى بيلاسجوس ملك آرجوس ، وتقدمت بكرى بناته إلى الملك فحدثته عن منشئها وما تمت به من وشائج القربى إلى آرجوس عن طريق يو حبيبة سيد الأولمب وصفيته ، وتضرعت إلى الملك أن يحميها واخواتها وأباها من ملك مصر ، وألا يردهم عليه أبدا ؛ ولم يستطع الملك أن يعدها حتى يستشير شعبه ، فهددت بأن تشنق نفسها ، هى وأخواتها فى جذوع الآلهة إن لم يفعل — وذهب الملك يحتال ليكسب أصوات شعبه وتأييده لقضيتهن — ولكن ظهرت سفينة فى البحر فى هذه الآونة ، فاذا هى مركب مصرى ، وإذا فيه جند وقائد أتوا يستردون البنات وأباهم قسراً ... وانقض الجنود على البنات ، وطفقوا يجرونهن من شعورهن لينزلوهن إلى السفينة ، وكادوا يفعلون ، لولا عودة ملك آرجوس فى آخر لحظة ، فحماهن من القائد المصرى ، واحتدم الجدال بين الملك والقائد ، حتى عد القائد أن ملك آرجوس ، بمخاشنته التى أبداها قد أعلن الحرب على مصر ... فعاد أدراجه إلى السفينة ليبلغ مولاه ..... أما البنات فنزلن فى حصن آرجوس مكرمات آمنات

(١) ليس هذا عنوان الدرامتين ولا عنوان إحداها ، ولكنا آثرناه لأن أحدا لا يجزم بصحة اسميهما ، ومؤرخو الأدب اليونانى على أن اسم الدرامة الثانية هو (مصلحات فراش النوم) أو الايجبتيون — وهى لا تعنى المصريين — والثالثة (الدانايدز)

— ١ —

فى فجر يوم من أيام الصيف ، انشق الأبيض المتوسط عند ساحل آرجوس ، عن أسطول لجب ما عتم أن انتشرت سفائنه فوق الماء كأنها الدبى ، وخشخشت خلال أواذيه كأنها الأساود ، ثم نفثت سمومها فوق الشاطئ جنوداً من شياطين فرعون ، مستلئمين فى الدروع ، مقنعين فى الحديد ، يلاعبون السمهريات ، ويرهفون الرقاق البيض !

وكانت آرجوس الخالدة نائمة حالمة ، غارة فى غفوة الفجر ؛ وكان الأرجيف الأشقياء غارين كذلك ، تداعب أجفانهم الوسنى أطياف الآلهة ، وتمرح فى قلوبهم ومضات من السعادة يكاد الأولمب يمضى بها ... حين ينبلج الصباح اللماح عن فوهة بركان ... ما تلبث حتى تكون وهدة من وهاد جهنم ! ...

— ٢ —

وأطل الحراس فى شعاف الجبل ، فهتوا ! ! وزاغت أبصارهم ! ... وأوقدوا النيران ! ... واستيقظت آرجوس مجلى ، تنظر الى الموت الفاجئ يتربص بها ، ويكاد ينقض عليها ! .....

« المصريون ! المصريون ! المصريون ! .... »

وذهبت الصيحة فى أرجاء المدينة تهز قلوب الأبطال ، وتداعب ألباب الصناديد ، وتزلزل فرائص دانوس وبيلاسجوس ! وهرعت الجماهير إلى هيكل الآلهة تصلى وتبتهل ؛ وجمع الملك مجلس شوراه ليروا فى ذلك الحدث المدلهم رأيهم ، فأجمعوا على وجوب الدفاع عن المدينة ، وعدم تسليم ضيفهم الشيخ وعذاراه اللاجئات مهما كلفهم الذود عنهم من جهد ، ومهما طال حصار المصريين :

— « أفهذا رأيكم إذن ؟ »

— « أجل أيها الملك ! ولا رأى لنا غيره ! إن شرف آرجوس وكرامة الأرجيف معلقان بما نصنعه من أجل هؤلاء

العذارى ! لِتَمُتْنَ جميعاً دونهن ، ولا يقولن أحد فى هيلاس إننا منعناهن أولاً ، ثم أسلمناهن أخيراً ! »

— « إذن لتكن حرب ! ولندفع عن شرف آرجوليس ! »

— ٣ —

وكانت الحرب الزبون التى شابت من هولها نواصى الأرجيف ، والتى أوقفتهم هيجاؤها حيارى فى أبراجهم كاظمين !

ثم ... ... سقطت آرجوس !

وجاست خلالها شياطين فرعون ! وانطلق أبناء إيجبتوس فى عرصاتها تحف بهم أعلام النصر ، وترف فوق هاماتهم أكاليل المجد ، حتى كانوا فى هيكل المدينة الخالدة ، حيث تماثيل السادة النجب من آلهة الأولمب ... فـ ... صلوا لآلهة النيل ، وشكروا لرع ... وأثنوا على أمون ، وعفروا القرابين لآزوريس ! !

وعموا شطر الحصن المنيف فوق رُبى آرجوس فاقتحموه على دانوس وبنات دانوس ؛ وكان أبوهن قد نصح لهن بالانصياع لما أراد القضاء : « ... فلا راد لما قُدِّر ، ولا دافع لما وقع فى صحيفة المرء ... ولتبحر يا بناتى البائسات إلى مصر ، وليكن لنا ثمة شأن غير هذا الشأن ، ولتتم المأساة ، ولتندلع النيران ، وليكن أبناء أخى أول ما تأكل من حطب ، وخير ما يلقى فيها من حصب ، وتتغذى به من أشلاء ! ! »

وظهر القادة الخمسون ، أبناء إيجبتوس ، ومن حولهم الجند شاكى السلاح ، فأسقط فى يد دانوس وأرتج عليه . واسودت الدنيا المشرقة فى عيون بناته ، وظللن متناثرات هنا وهناك فى ردهة الحصن ، ضافيةً عليهن جلاليبهن السود ، وأرديتهن الحزينة السادرة تزيدهن جمالاً على جمالهن ، وتجعل منهن ربرباً من الفتان بدا فى هذا المرمر المترقرق فى أكفهن ووجوههن ، وأجيادهن ونديهن ، وفى هذه السيقان الناعمة التى كان يحسبها أن ترد عادية الجيش المغير ... وإن كانت الجن من ورائه ظهيراً ! !

— ٤ —

ذهل أبناء إيجبتوس ! وانقدح شرر الهوى فى قلوبهم ، وتدفق الدم العاشق فى عروقهم حاراً ... ثم انهمرت أرواحهم الوامقة من عيونهم دموعاً سخينة ... فسجد كل منهم عند قدمى واحدة من بنات عمه ... ولبثوا لحظة لا يبسون ! ...

وحلق دانوس فى بناته وفى أبناء أخيه قليلاً ثم قال : « قِفْن لأبناء عمكن يا فتيات ! قفن للأبطال المذاويد أبناء إيجبتوس ! رباه ! لم نجم هذا الشر بيننا ؟ ! لقد كنت أحب أخى ، وكان أخى يحبنى ، فأى شيطان أغرى هذه العداوة بيننا ؟ ! قضاء !... أجل ... قضاء ... قضاء ... »

وما كاد أبناء أخيه يسمعون هذه الكلمة المصنوعة من فم عمهم ، حتى تقاطروا اليه يقبلونه ويتمسحون به ويترضونه ... وظل هو يتلطف بهم ، ويهش لهم ، ويربت فوق أكتافهم ، وكأن شيئاً من الأحقاد التى أكلت الأفئدة ، وأراقت الدماء لم يكن ! ...

— ٥ —

وفُزِّع عن قلوب العذارى ، ونهضن فتلقين أبناء عمهن بالبشاشة والبشر ، ثم تلطفت كبراهن فشفعت لبيلاسجوس الملك الكريم المأسور فأطلق سراحه ورد عليه عرشه وألبس تاجه ، وعقد مع الأرجيف صلح نبيل دل على جود المصريين وسماحهم

وأقلع الأسطول ، وهمت انفلك واحتواها الماء ، وانتثر فى أذيالها وشى رجراج من الثبج ، وغابت آرجوس عن الأنظار قليلاً قليلا ، حتى إذا طوى الأفق آخر شاهق من أبراجها ، أوى الأبناء الخمسون إلى البنات الخمسين بباسطونهن ويسامرونهن ويسترون عنهن آثار مانزغ الشيطان بينهم وبينهن

وأقبل الليل وانجاب ، وبزغت ذكاء وتوارت بالحجاب ... وكرت أيام ... ثم بدا الشاطىء المصرى ، وهبت نسمات الوطن وتبسمت الشمس فوق الأرض البنفسجية تحيى أبناءها الغزاة المنتصرين ، وأطل من قرصها الكبير ، رَعْ الكبير ، يبارك أبطاله ويغدق عليهم نفحاته . وخرج الشعب العظيم يهتف للجيش الظافر ، ويردد هذا النداء المحبب القديم : « المجد لمصر ! »

— ٦ —

وأقبل إيجبتوس على دانوس يلاومه ، ثم غفر له : « هذه النزغة التى أثمتت بنا الأعداء ، وأغضبت علينا أرباب السماء ، ومحت ما بيننا من محبة وصفاء ... » واتفقا على العرس ... وذهب كل يعد له عدته !

وخلا دانوس إلى شيطانه فقال إنى معك ! !

ثم جمع إليه بناته فخطبهن خطبة طويلة نضحها بالدمع وصهرها بنار الفؤاد ، وأودعها أحزانه وأشجانه . وذكرهن

بشرائع السماء ، ونواهي الآلهة ، والزنى البغيض الذى يستتر فى هذا الزواج القهرى ، لا عن نحلة ، ولا عن رضى ولا سلطان مبين ! ...

وذكر لهن أمهن المتوفاة وما كان بينها وبين زوجة عمهن من إحن وبغضاء ، فحرك فيهن هذا الماضى الأسود بجميع سخائمه ، وأثار فى قلوبهن الرطبة أشجانهن القدامى ... حتى إذا آنس فيهن الطاعة له والائتمار بأمره . أخرج لكل منهن سكيناً مسنونة مرهفة الحدين ، تقطر المنايا من أشفارها فيردها غمدها الذهبى المرصع بأغلى الجواهر واليواقيت

— « فاذا حان الحين يافتيات ، ونامت أعين الرقباء فاذكرن شقاءكن الذى لا شقاء مثله ، واذكرن كيف قضت أمكن بغصة العداوة بينها وبين زوجة عمكن ، ثم اذكرن أباكم هذا الشيخ الفانى المتهالك كيف ذل ، وكيف وضع أنفه الأشم فى الرغام ... واذكرن أخيراً أنكن تحمين شرائع السماء من هذا الاعتداء ... فالآلهة معكن ، وستضرب بأيمانكن ، وستغمد هذه الخناجر فى أحشاء أعدائها بوساطتكن ... بورك فيكن وكانت السماء فى عونكن ! »

— ٧ —

وأخذت ممفيس زُخرفها وازّينت ، وتبرجت عمائرها الفرعونية فى حُلل من النُّور والنَّوار وأفواف الزهر ، وضفائر الورد والرياحين ؛ وانطلق كهنتها يرسلون فى جميع الأرجاء ألسُن الند ، وقمة العنبر ، وشذى الكافور والصندل ، من مجامرهم الفضية المقدسة ، واجتمعت أسراب الحسان فى ساحاتها وباحاتها بسيقانهن المصرية الفرعونية يتلاعبن ويتطربن ، ويتغنين ويتناشدن ، ويهزأن بعرائس الماء التى خالتها قريحة هيلاس ؛ وسار ربربهن يخطر فى كل حنية ، ويميس فى كل ميدان ، وينساب فى كل فردوس ، حتى كُن عند قصر الملك ، منزل العز ومناط المجد ، وفخر مصر وقلبها الخفاق ، فرقصن رقصات ما كان أشبهها بنبضاته ، وتغنين الأغانى كأنها تخرج من فمه ، وتنبعث من جوانحه وتجلجل موسيقاها عن حناياه ... ثم شارك الشعب فى الأفراح الملكية ، فمج النيل المقدس المعبود بالطوّافات والحراقات ، وهرعت عند حفافيه أمة بأسرها تفرح كما يفرح الملك ، وتسعد كما يسعد التاج ، وتنتشى بنشوة العرسين

وأقبل الليل ، وأسفر خونسو [1]

ورقصت ممفيس فى لجة من خمر ، ورفرف حوريس [2] فوق السلات الشاخصة فى الميادين ، ولم يعلم أحد أنه كان يرى غير ما ينظر الناس ، وأن عينه كانت تذرع الوادى الوادع السعيد وتكاد تضج مما أجن هذا الليل الرهيب ... لا ... بل كان الناس ينهلون أفاويق الحبور فى صحراء ممفيس ... فى ليبيا العجيبة ... ليبيا التى تصفر فيها الرياح ، وتتكلم فوق كثبانها ألسن الألغاز والأسرار ! ! ...

— ٨ —

وغرق القصر الملكى فى أثير الموسيقى ، وفى فيض من النور الذى يشبه الفجر الكاذب ؛ ثم أخذت الركبان تنصرف والولدان تتفرق إلى مخادع اللهو ، وأخذ الكرى يعقد أجفار ممفيس الصاخبة ، التى كانت منذ هنيهة تعج بالألوف ، وتضج بالجماهير

وعادت آية الليل ... رهيبة كشأنها منذ الأزل ...

وافتر خونسو مرة أخرى عن ابتسامة هى إلى العبوسة أدنى ، وإلى السخرية أقرب !! يا لرهبة الأقضية ! ويا لصرامة المقادير !

لقد أوى أبناء إيجبتوس كل إلى مخدعه ، بعد إسراف طويل ، ولذات لم يكن يخطر على بال أحد أنها تنتهى ، وبعد قصف أيما قصف ، وخلاعات ليست كمثلها خلاعات ... فما كادت رؤوسهم تمس دباج الطنافس حتى غطوا فى سباب عميق ، وحتى انطلقت أبالسة الشر من أغماد خناجر دانوس ، التى بدت أظمأ ما تكون إلى الدماء الحارة الشابة ، تجرى فى عروق أبناء إيجبتوس

— ٩ —

ولقد كان أبوهن قد اتفق معهن على هذه الغدرة الصفراء ، وجعل لكل منهن علامة حين تأفد ساعة النفاذ ، أن تطفىء السُّرُجَ إلا واحداً تدعه مطلاً من إحدى الكُوى التى تواجه قاعته ، إذ كان فى هذه الليلة الليلاء ضيفاً على أخيه ، وشريكه فى مخدعه ، ومنتوياً هو الآخر إنفاذ الغدرة الوحشية فى شقيقه ، ليخلوَ له وجه مصر ! ...

واضحكى أيتها الأقدار !! ...

(١) إله القمر عند المصريين القدماء

(٢) ابن أزوريس وكان المصريون يمثلونه حباً جماً وكانوا يرمزون له بالبازى الأشهب

— ١٠ —

وأخذت السُّرُج تومض ثم تنطفىء ، وأخذ دانوس يلحظ بكُوى ويعد : « واحد ... اثنان ... ثلاثة ... أربعة ... تسعة ... » حتى عد تسعة وأربعين ... ووقف العد ... وأبطأ الحساب ، وتلكأ الجلاد ! ...

— « ماذا ؟ لقد ذبح الجميع أزواجهن إلا واحدة ! ... ما الذى منعها ؟ لعله لم ينم الخبيث ... ! ويلاه ! انطفئى أيتها السرج ... ولتنطفئ حياته فى أركن ! ... »

وذكر هو أنه لم ينفذ غدرته ، فهب الى سرير أخيه ، وأغمد خنجره فى صدره ! ... وغادر إيجبتوس يتشحط فى دمه ... وراح يحلم بالتاج والعرش والصولجان ! . .

حلم قصير جميل ... ولكنه نظر الى الكوة الخمسين فوجد أضواءها تتألق ... ورأى إلى نورها يكاد يضيء ممفيس كلها ... فكاد حنقه يقضى عليه ...

— « هلمى يا غبية ! البدار الى دمه البدار ! »

ولكن السرج تتألق وتتألق ... ولا تنطفئ منها شعلة واحدة !

— ١١ —

وقفت الفتاة الجميلة تلقاء الفتى الجميل تقبله ، بعد أن كادت تقتله ... !

أجل ... ! وقفت هيبرمنسترا[1] تلقاء ابن عمها لنسيوس[2] تعبده ، وقد شغفها الشاب الجميل الناعم حباً ...

— « يا لأهدابه المراشة ، ويا لجبينه المشرق ، ويا لمنكبيه الجبارين ، ويا لوجهه البرىء ! أأطيع أبى ... هذا الشيخ القاسى المتحجر ... الذى لا قلب له ... الذى فرغت مآربه من الشباب ومن الحياة جميعاً ... وأسطو بخنجرى على هذا الشباب الذى أخلد إلى ... ونام ملء عينيه بين يدى ... وحملنى أمانته كلها ... لا وأرباب الأولمب ! لا يكون هذا أبداً ! ... إن قبلة واحدة على جبينه المتبلج خير من جنة أبى ، ومن الدنيا والآخرة جميعاً ... نم يا لنسيوس ! نم يا حبيبى ! إنى سأقف عند سريرك طول الليل أحرسك ، وسأغمد خنجرى فى صدر من تحدثه نفسه باغتيالك ولو كان أبى ! ... »

— ١٢ —

ولبث دانوس يحرق الأرض ويلحظ السرج ... ولكنها باقية كما هى ... لا تنطفىء ...

وانبلج الفجر ... ثم تنفس الصبح ... وأشرقت ذكاه ... وهب لنسيوس من نومه فما راعه إلا فتاته الجميلة واقفة إلى جانبه ضعيفة واهية ... تبكى ... وبيدها السكين المشحوذ يتلمظ ... ويتلمظ ... !

— « ماذا ؟ هيبرمنسترا ؟! مابك واقفةً هكذا ياحبيبتى ؟! »

— « لا شىء ... أنا أحرسك ... فقط أحرسك ! ... »

— « تحرسينني ؟ ... يالهول ! ومم يا ابنة العم ؟ ... »

— « من ... لنسيوس !! من أبى يا أعز الناس علىّ ! ... »

— « ماذا ؟ تحرسيننى من أبيك ؟ من عمى ؟ ... »

— « أجل ... أحرسك من الغادر الذى قتل إخوتك ! ... إنهض يا لنسيوس ! خذ عليه طريقه ... أحسبه قد قتل أباك أيضاً ... البدار البدار ! ... ... ويلاه ... وى ... »

وسقطت الفتاة لا تعى ...

— ١٣ —

وانطلق لنسيوس كالمجنون فى غرفات القصر المشيد ... ونفذ إلى مخادع إخوته ... فلم ترد عليه جثثهم ... صرعى فوق ديباج العرس ... مضرجة بدم الشباب الحار ... البارد كزمهرير الموت ! ...

وصعد الدم إلى رأسه ، فهرول إلى غرفة أبيه ؛ فما راعه إلا أن رآه قد لقى حتفه كما لقى إخوته حتوفهم ... وما راعه إلا أن رأى دانوس الجبار يحملق فى الكوة ... التى ما فتئت أضواؤها تنبعث منها ، برغم الفيض الذى ترسله الشمس ، مركب رع ... فى العالمين ...

وانقض عليه وذبحه

وجلس فوق أريكة يبكى ...

وهكذا قتل دانوس أحدُ أزواج بناته ، وصدقت الرؤيا ... لأن الآلهة لا تكذب ! !

— ١٤ —

واضطرب الأولمب[1] من هول الفاجعة ، واجتمع الأرباب

(١) لا ندرى لم لم يترك إسخيلوس عقوبة بنات دانوس لآلهة النيل ؟ الأنهن لا يؤمن إلا بآلهة الأولمب ؟

(١) Hypermnestra (٢) Lynceus